

تاريخ نشأة الدرس اللساني بأوروبا

The history of the origin of the language lesson in Europe

سفيان بوساحة^{1*}، أ. د محمد بوزيدي²¹ جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر (الجزائر)، nov589424@gmail.com² جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر (الجزائر)، mohamed.bouzidi@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2025/12/10

تاريخ القبول: 2025/11/17

تاريخ الاستلام: 2025/11/10

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة النشأة التاريخية للدرس اللساني في أوروبا منذ إرهاصاته الفلسفية الأولى في الفكر اليوناني، مرورًا بالتحوّلات التي شهدتها خلال العصور الوسطى وعصر النهضة، وصولًا إلى بروز اللسانيات الحديثة في القرن التاسع عشر مع المدرسة المقارنة والبنائية، ثمّ التحوّلات اللاحقة في القرن العشرين مع النظرية التوليدية التحولية. ينطلق البحث من فرضية أساسية مفادها أن اللسانيات الأوروبية هي ثمرة تطوّر فكري طويل تداخلت فيه الفلسفة والمنطق وعلم اللغة، حتى استقرّ في صورة علم مستقلّ له أدواته ومناهجه. اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، مع توظيف مقارنة مقارنة بين المدارس اللسانية الكبرى لإبراز الفوارق المنهجية بينها.

كلمات مفتاحية: اللسانيات، أوروبا، البنائية، المقارنة، دي سوسير، تشومسكي

Abstract:

This study examines the historical emergence of linguistic thought in Europe, tracing its development from ancient Greek philosophical reflections on language through the Middle Ages and Renaissance, to the rise of modern linguistics in the nineteenth century with the Comparative and Structural schools, and the transformative theories of the twentieth century, especially Generative Grammar.

The research adopts a historical-analytical and comparative approach, arguing that European linguistics represents the culmination of centuries of philosophical and linguistic inquiry that evolved into a self-sufficient scientific discipline.

Keywords: Linguistics; Europe; Structuralism; Comparison; De Saussure ; Chomsky

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تُعدّ اللسانيات (Linguistique) من أبرز علوم العصر الحديث التي أعادت الاعتبار للغة باعتبارها نظامًا معقدًا يخضع لقوانين داخلية، لا مجرد أداة للتعبير. غير أنّ هذا التصور لم يظهر دفعة واحدة، بل هو نتيجة لتطور طويل في الفكر الأوروبي بدأ منذ الفلسفة اليونانية، مرورًا بالعصور الوسطى، وصولًا إلى القرن التاسع عشر حيث انفصلت دراسة اللغة عن الفلسفة والمنطق لتصبح علمًا قائمًا بذاته.

إنّ دراسة نشأة الدرس اللساني في أوروبا تمكّن من فهم التحوّل من الموقف الفلسفي التأملي إلى المنهج العلمي التحليلي، ومن النظرة المعيارية إلى النظرة الوصفية، ومن الاهتمام بالمضمون إلى دراسة البنية.

وهذا ما يجعل الإشكالية المركزية للبحث تتمثل في السؤال التالي:

كيف تدجّ الفكر الأوروبي في مقارنته للغة من التأمل الفلسفي إلى التأسيس العلمي الحديث لللسانيات؟

ومن هذه الإشكالية تتفرع الأسئلة الفرعية الآتية:

1. ما هي الجذور الفلسفية التي مهّدت لظهور الوعي اللساني الأوروبي؟
2. كيف ساهمت المدرسة المقارنة والبنائية في إرساء قواعد الدرس اللساني الحديث؟

3. ما طبيعة التحولات المنهجية التي شهدتها القرن العشرون في دراسة اللغة؟

أهداف البحث:

- تتبع المراحل التاريخية لنشأة الدرس اللساني في أوروبا.
- تحليل الأسس النظرية والمنهجية لكل مرحلة.
- إبراز أثر هذه التطورات في بناء علم اللغة الحديث.

المنهج المعتمد: المنهج التاريخي التحليلي، مع توظيف المقاربة المقارنة في دراسة المدارس اللسانية.

الدراسات السابقة:

تناولت العديد من المؤلفات تاريخ اللسانيات، من أبرزها:

- عبد السلام المسدي (العربية واللسانيات الحديثة)،
- أحمد محمد قدور (مبادئ اللسانيات)،
- تمام حسان (اللغة العربية معناها ومبناها)،
- جورج مونان (مدخل إلى علم اللغة)،
- ودي سوسير (محاضرات في اللسانيات العامة).

غير أنّ معظم هذه الدراسات تناولت الموضوع من زاوية مختصرة، ولم تُعالج بشكل شامل مراحل التطور من الفلسفة إلى البنيوية والتوليدية، وهو ما تسعى هذه الورقة إلى تقديمه في نسق تاريخي تحليلي متكامل.

2. المبحث الأول: الجذور الفلسفية والفكرية لنشأة الدرس اللساني في أوروبا

(من الفكر اليوناني إلى عصر النهضة)

تمهيد: لم ينشأ الدرس اللساني الأوروبي بمعناه العلمي الحديث إلا في القرن التاسع عشر، لكن جذوره تمتدّ عميقاً إلى الفكر الفلسفي القديم، الذي طرح أسئلة جوهرية حول اللغة بوصفها أداة للتفكير والتعبير والتواصل. ومنذ اللحظة الأولى، ارتبطت اللغة في التصور الأوروبي بمبحثين كبيرين: الوجود والمعرفة، فكانت جزءاً من التفكير الفلسفي قبل أن تصبح موضوعاً مستقلاً للدراسة.

وقد مرّ هذا الوعي اللغوي في أوروبا بأربع مراحل أساسية: المرحلة اليونانية، والرومانية، والوسيطة، وعصر النهضة.

أولاً: اللغة في الفلسفة اليونانية

1. بين الطبيعية والاصطلاح: إشكالية البدايات

يُعدّ الفكر اليوناني أول من تناول اللغة تناوُّلاً فلسفياً منظِّماً. ففي محاوره كراتيلوس لأفلاطون (Cratyle, 360 ق.م)، نجد أول جدال فلسفي حول أصل اللغة وطبيعتها: هل العلاقة بين اللفظ والمعنى طبيعية أم اصطلاحية؟

يرى كراتيلوس أن الأسماء تحمل في ذاتها طبيعة الأشياء التي تعبّر عنها، بينما اعتبر هرموجين أنّ العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية قائمة على الاتفاق الاجتماعي. وقد اتخذ أفلاطون موقفاً وسطاً حين قال إن اللغة من صنع الإنسان، لكنها غير خالية من البعد الطبيعي (أفلاطون، 1996)

لقد كانت هذه المحاوره أول خطوة في التاريخ نحو التفكير في الطبيعة الرمزية للغة، وهو المبدأ الذي سيتطوّر لاحقاً على يد دي سوسير في القرن العشرين حين صاغ مفهوم "الاعتباطية اللغوية".

اللغة والمنطق عند أرسطو

أما أرسطو، فقد نقل اللغة من دائرة النقاش الفلسفي إلى حقل المنطق والمعرفة، فرأى أنّ الألفاظ رموز للأفكار، وأنّ الأفكار بدورها رموز للأشياء، وبذلك وضع الأساس لمفهوم التمثيل العقلي للغة. (أرسطو، 1948).

كما ميّز بين القول (Logos) بوصفه تركيباً يحمل دلالة، والكلمة بوصفها وحدة صوتية ذات معنى، مؤكداً أن اللغة أداة للتفكير قبل أن تكون وسيلة للتخاطب.

وقد أثر هذا التصور تأثيراً بالغاً في الفكر الأوروبي اللاحق، خصوصاً في تقاليد النحو المنطقي في القرون الوسطى.

اللغة عند الرواقيين والرواقيات الجديدة

ظهر في القرن الثالث قبل الميلاد تيار فلسفي جديد هو الرواقية (Stoïcisme) ، وقد أولى اللغة عناية خاصة. رأى الرواقيون أن اللغة ظاهرة طبيعية تنشأ من العقل الكلي (*logos*)، وأن بين الفكر واللفظ تواصلاً جوهرياً.

وقد ميّزوا بين ثلاثة مستويات:

- الصوت (الفونيم)،
- اللفظ (الكلمة)،
- المعنى (الدلالة).

ويُعدّ هذا التقسيم من أوائل البذور لما يُعرف اليوم بالتحليل الثلاثي للعلامة اللغوية. كما تحدثوا عن مفهومي **الدلالة** (*semeion*) و**المعنى** (*lekton*)، وهي مفاهيم ستعود في اللسانيات الحديثة. (مونان، 1980)

ثانياً: التراث اللغوي في العصور الرومانية واللاتينية

عندما انتقل الفكر اليوناني إلى الرومان، ورث هؤلاء تصوراً فلسفياً ومنطقياً عن اللغة، لكنهم أعطوه طابعاً أكثر عملياً وتعليمياً. فظهر نحو **دوناتوس** و**بريسيانوس** في القرن الرابع والخامس الميلادي، اللذان صنّفا مؤلفات نحوية لتقعيد اللاتينية. وقد أصبحت **اللاتينية** آنذاك لغة الدين والعلم، فارتبطت الدرس اللغوي ارتباطاً وثيقاً باللاهوت والبلاغة.

تميز هذا النحو بأنه **وصفي معياري**، يهتم بصحة الاستعمال أكثر من بحثه في طبيعة اللغة. ومن هنا ظهرت فكرة "النحو العام" الذي سيؤثر لاحقاً في مدرسة بور رويال الفرنسية. (اللطيف، 2003)

ثالثًا: الفكر اللغوي في العصور الوسطى

في القرون الوسطى (من القرن الخامس إلى الخامس عشر)، خضع الفكر اللغوي لهيمنة اللاهوت المسيحي، وأصبحت اللغة وسيلة لفهم النصوص الدينية. إلا أن الفلاسفة المدرسين) السكولاستيون (حاولوا الربط بين المنطق الأرسطي والنحو اللغوي، فظهر ما يُعرف بـ **النحو المنطقي** الذي يمزج بين البنية النحوية والبنية الفكرية. وقد مثّلت أعمال **توماس الأكويني** و**أنسلم** و**أبيلار** محاولات لتفسير اللغة بوصفها انعكاسًا للبنية العقلية، وهو ما يمهد لفكرة "النحو العقلي" في الفكر الحديث. (حسان، 1985)

ورغم الطابع اللاهوتي لهذه المرحلة، فإنها أسهمت في حفظ التراث اللغوي الإغريقي واللاتيني، الذي سيُعاد اكتشافه في **عصر النهضة**.

رابعًا: عصر النهضة وبداية الوعي المقارن

1. إحياء التراث اللغوي

في القرن السادس عشر، أعاد **عصر النهضة الأوروبية** الاهتمام بالتراث الكلاسيكي، وترجمت مؤلفات أرسطو وأفلاطون من جديد. وبدأ العلماء يهتمون باللغات القومية كالفرنسية والإنجليزية والإيطالية، بدل الاكتفاء باللاتينية.

ظهر في هذا السياق كتاب **النحو الفرنسي العام والعقلي** الذي مثّل محاولة لوضع نحو عالمي مستمد من الفكر الفلسفي والمنطقي. (ميلان، 1998)

2. نشأة الدراسات المقارنة الأولى

شهد القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ميلاد الوعي المقارن باللغات. فقد لاحظ المستشرقون والعلماء الأوروبيون، من خلال دراساتهم للغات الهندية واليونانية واللاتينية، وجود تشابهات منهجية تدلّ على أصل مشترك.

ومن هنا نشأ ما عُرف لاحقاً بـ **المدرسة المقارنة** التي أسست للدرس اللساني الحديث، وهي التي ستتطور في القرن التاسع عشر على يد فرانز بوب وياكوب غريم ورasmus راسك. (المسدي، 1981)

3. من اللغة إلى الفكرة العلمية

إنّ ما يميّز هذه المرحلة أنها نقلت البحث في اللغة من حقل الفلسفة إلى مجال العلم، فبدأ التفكير في دراسة القوانين التي تحكم تطوّر اللغات، ومقارنة الظواهر الصوتية والنحوية بينها، وهو ما مهد فعلاً لقيام اللسانيات التاريخية في القرن التاسع عشر.

المبحث الثاني: من المقارنة إلى البنيوية – التأسيس العلمي للدرس اللساني الحديث في أوروبا

تمهيد: مع بداية القرن التاسع عشر، تحوّلت دراسة اللغة في أوروبا من مجرد تأمل فلسفي إلى بحث علمي منهجي يقوم على المقارنة والملاحظة والتعديد.

فقد بدأت تظهر مدارس جديدة جعلت اللغة موضوعاً مستقلاً عن الفلسفة والمنطق، واعتبرتها نظاماً خاضعاً لقوانين التطور والتغيّر.

وقد مثّل هذا التحول لحظة ميلاد ما يسمى بـ **اللسانيات الحديثة** (Linguistique moderne).

وسنحاول في هذا المبحث تتبع أبرز المراحل التي شهدتها هذا التحول: من المدرسة المقارنة إلى المدرسة البنيوية مروراً بمرحلة اللسانيات التاريخية والنحو العام.

أولاً: المدرسة المقارنة وبدايات اللسانيات التاريخية

1. اكتشاف القرابة اللغوية بين اللغات الهندوأوروبية

في مطلع القرن التاسع عشر، لاحظ المستشرق البريطاني **ويليام جونز** (William Jones) خلال دراسته للغة السنسكريتية أنّ هناك تشابهاً مذهلاً بينها وبين اللغتين اليونانية واللاتينية، سواء في الألفاظ أو الصيغ النحوية أو الأصوات. وقد قال في محاضراته الشهيرة سنة 1786: "إن لهذه اللغات أصلاً مشتركاً لا يمكن إنكاره." (Jones, 1786)

كان هذا الاكتشاف نقطة الانطلاق نحو علم جديد هو **فقه اللغة المقارن** (Comparative Philology)، الذي يسعى إلى تحديد العلاقات الوراثية بين اللغات.

2. رؤاد المدرسة المقارنة

برز في ألمانيا ثلاثة أسماء كبرى وضعت الأسس المنهجية لهذا الاتجاه:

- **فرانز بوب** (Franz Bopp) الذي نشر سنة 1816 كتابه **حول نظام تصريف الأفعال في السنسكريتية**، وأسس من خلاله للمقارنة الصوتية والنحوية بين اللغات الهندوأوروبية.
- **ياكوب غريم** (Jacob Grimm) الذي صاغ ما يعرف بـ **قانون غريم**، مفسراً التحولات الصوتية المنتظمة بين اللغات الجرمانية واللغات الأخرى.
- **راسموس راسك** (Rasmus Rask) الذي وضع مبادئ المنهج المقارن، مشدداً على ضرورة الانطلاق من الملاحظة التجريبية لا من الفرض الفلسفي. (المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية، 1981)

وقد تحوّل البحث اللغوي في هذه المرحلة إلى دراسة علمية لتاريخ اللغة وتطورها، مركزاً على القوانين الصوتية والأنماط النحوية المشتركة.

3. المنهج التاريخي التطوري

من خصائص هذه المدرسة اعتمادها على **المنهج التاريخي** (Méthode historique)، الذي يفترض أنّ اللغة كائن حيّ يتطور ويتغيّر عبر الزمن وفق قوانين ثابتة. وقد أُطلق على هذا التيار لاحقاً اسم **اللسانيات التاريخية** (Linguistique diachronique). وكان هدفه الأساسي إعادة بناء اللغات القديمة من خلال المقارنة العلمية بين فروعها المعروفة. (مونان، مدخل إلى علم اللغة، 1980)

رغم الطابع العلمي الصارم لهذا الاتجاه، فقد كان تركيزه على التطور الزمني للغة يحجب أحياناً دراسة بنيتها الداخلية في اللحظة الحاضرة، وهو ما سيعمل عليه البنيويون لاحقاً.

ثانياً: المدرسة النيوجرمانية والتحوّل نحو البنية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت في ألمانيا مدرسة جديدة هي **مدرسة النحويين الجدد** (Les néogrammairiens)، وتمثل حلقة الوصل بين المقارنة والبنوية. وقد دعا هؤلاء إلى الدقة العلمية في البحث الصوتي والنحوي، مؤكدين أن **القوانين الصوتية لا تعرف استثناءات**، وأن كل تغير لغوي يمكن تفسيره تفسيراً علمياً.

ومن أهم ممثلي هذه المدرسة **أوغست شلايخر** (August Schleicher) و**هرمان بول** (Hermann Paul) و**كارل بروغمان** (Karl Brugmann). ورأى شلايخر أن اللغة كائن طبيعي يولد وينمو ثم يهرم، متأثراً بنظرية التطور الداروينية. (الخولي، 1992)

ومع ذلك، فقد أدى هذا التوجّه إلى بروز فكرة أن اللغة **نظام** قائم بذاته له قوانينه الداخلية، وهي الفكرة التي ستبلغ ذروتها مع **دي سوسير**.

ثالثًا: فردينان دي سوسير وبداية اللسانيات البنيوية

1. السياق الفكري والريادة العلمية

يُعدّ فردينان دي سوسير (Ferdinand de Saussure) المؤسس الحقيقي لللسانيات الحديثة بفضل دروسه التي جمعت بعد وفاته في كتابه الشهير *دروس في اللسانيات العامة* (1916). (*Cours de linguistique générale*, 1916)

وقد أحدث سوسير ثورة فكرية بنقله الدرس اللغوي من المنهج التاريخي إلى المنهج البنيوي، أي من دراسة تطور اللغة في الزمن إلى دراسة بنيتها في لحظة معينة. (Saussure, 1916)

2. أهم المفاهيم السوسيرية

- اللغة: (Langue) نظام اجتماعي من العلامات.
- الكلام: (Parole) استعمال فردي لهذا النظام.
- اللسان: (Langage) القدرة العامة على التواصل.
- العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول: لا علاقة طبيعية بين اللفظ والمعنى.
- الدرس التزامني (Synchronie) مقابل التطوري (Diachronie) دراسة اللغة في ذاتها مقابل دراستها عبر الزمن.

لقد جعل سوسير من اللغة نظامًا من العلاقات لا مجموعة من المفردات، وهو ما يمهد لقيام اللسانيات البنيوية لاحقًا. (الفهري، 1994)

رابعًا: تطوّر البنيوية في أوروبا

بعد سوسير، ازدهرت اللسانيات البنيوية في أوروبا، خصوصًا في مدرسة براغ ومدرسة كوبنهاغن ومدرسة جنيف.

1. مدرسة براغ

تأسست سنة 1926 على يد نيكولا ترابيتزكوي (Trubetzkoy) ورومان ياكبسون (Jakobson).

اهتمت بدراسة الوظيفة التواصلية للأصوات وأدخلت مفهوم الوظيفة اللغوية (*fonction linguistique*).

وقد أرست دعائم علم الأصوات الوظيفي (*phonologie fonctionnelle*).. (الموسى، 2001)

2. مدرسة كوبنهاغن

أسسها لويس هيلمسليف (Louis Hjelmslev)، الذي حاول بناء نظرية شاملة للغة تقوم على المستويات التحليلية (التعبير والمحتوى)، وسعى نظريته الغلوسيماتيك (*glossématique*).

وقد كانت هذه المدرسة أكثر تجريدًا ومنهجية، وساهمت في تأسيس ما يعرف بـ اللسانيات الشكلية.

3. مدرسة جنيف

واصلت أعمال دي سوسير عبر تلامذته، ومنهم شارل بالي (Bally) وألبير سيشهاي (Sechehaye)، اللذان عمّقا فكرة اللغة كنسق اجتماعي دلالي.

خامسًا: انتشار البنيوية وأثرها في الفكر الأوروبي

انتقلت البنيوية من مجال اللسانيات إلى ميادين أخرى مثل الأنثروبولوجيا (مع كلود ليفي ستروس)، والنقد الأدبي (مع رولان بارت)، والفلسفة البنيوية (مع ميشال فوكو). وبذلك تحوّلت اللسانيات إلى نموذج منهجي لفهم الظواهر الإنسانية، لا اللغوية فحسب.

فقد غيّرت البنيوية طريقة النظر إلى اللغة، من كونها أداة للتفكير إلى كونها بنية من العلاقات تحدد معنى كل عنصر من خلال موقعه داخل النظام. كما أسست لمبدأين جوهريين في الفكر الحديث:

1. النسقية (Systématicité)

2. **العلاقاتية** (Relationalité) (غيرو، 1990)

المبحث الثالث: من البنيوية إلى التوليدية – التحولات اللسانية في القرن العشرين

تمهيد: عرف القرن العشرون تحولات عميقة في الدرس اللساني الأوروبي والعالمي. فبعد مرحلة البنيوية التي ركّزت على البنية الداخلية للغة بوصفها نظامًا مغلقًا من العلاقات، ظهرت اتجاهات جديدة أعادت النظر في هذا التصور السكوني، محاولةً إدخال العقل والقدرة الإبداعية للمتكلم ضمن التحليل اللساني.

وقد كان رائد هذا التحول هو نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) الذي أسّس ما يُعرف بـ اللسانيات التوليدية التحويلية، لكنها لم تكن الثورة الوحيدة؛ إذ شهد القرن العشرون أيضًا ظهور تيارات مثل اللسانيات الوظيفية والمدرسة التداولية، التي جعلت اللغة فعالاً اجتماعيًا تواصلياً.

أولاً: أزمة البنيوية وميلاد النظرية التوليدية

1. حدود التصور البنيوي

على الرغم من الدقة المنهجية التي ميّزت البنيوية، إلا أنها واجهت انتقادات عدّة. فقد اتُّهمَت بأنها تدرس اللغة في حالتها الثابتة دون أن تفسر قدرة الإنسان على إنتاج جمل جديدة لا متناهية.

كما أنها أهملت البعد العقلي والنفسي للغة، مركّزة فقط على العلاقات الشكلية بين العناصر. (الفهري، اللسانيات واللغة العربية: المنهج والمفاهيم، 1994)

وقد فتح هذا النقد المجال أمام إعادة التفكير في ماهية اللغة وطبيعتها الذهنية.

2. نعوم تشومسكي والثورة المعرفية في اللسانيات

في سنة 1957، أصدر العالم الأمريكي نعوم تشومسكي كتابه الشهير *البنى التركيبية (Syntactic Structures)*، الذي أعلن فيه ميلاد النظرية التوليدية التحويلية (*Generative Transformational Grammar*).

انطلق تشومسكي من سؤال جوهري:

“كيف يتمكّن الإنسان من إنتاج عدد لا نهائي من الجمل انطلاقاً من قواعد محدودة؟”

ورأى أن الجواب لا يمكن أن يكون بنيوياً صرفاً، لأن تفسير هذه القدرة لا يتم إلا بالعودة إلى العقل الإنساني.

فاللغة عنده ليست نظاماً اجتماعياً فقط، بل هي ملكة ذهنية فطرية تُمكن الإنسان من اكتساب اللغة بشكل طبيعي دون تعليم مباشر. (Chomsky, 1957)

3. المبادئ الأساسية للنظرية التوليدية

طرح تشومسكي تمييزاً بين نوعين من الكفاءة اللغوية:

- الكفاءة: (Compétence) المعرفة الضمنية بالنظام اللغوي.
- الأداء: (Performance) الاستعمال الفعلي للغة في التواصل.

كما ميّز بين البنية العميقة (Deep Structure) التي تمثل المعنى المجرد، والبنية السطحية (Surface Structure) التي تمثل الجملة المنطوقة.

والتحويلات (Transformations) هي العمليات التي تربط بين البنيتين، مثل تحويل الجملة الخبرية إلى استفهامية أو مبنية للمجهول.

وهكذا نقل تشومسكي اللسانيات إلى مستوى جديد يجمع بين التحليل النحوي والنظرية المعرفية، مما جعل اللسانيات فرعاً من فروع علم النفس المعرفي.

ثانياً: التيارات اللسانية الموازية في أوروبا

رغم هيمنة النظرية التوليدية في الولايات المتحدة، فإن أوروبا شهدت في الفترة نفسها بروز اتجاهات مختلفة ركّزت على البعد الاجتماعي والتواصلي للغة.

1. اللسانيات الوظيفية (La linguistique fonctionnelle)

يمثل هذا الاتجاه امتداداً لأعمال مدرسة براغ، ويُعدّ أندريه مارتينييه (André Martinet) من أبرز رواده.

في كتابه الاقتصاد في التغير الصوتي (*Économie des changements phonétiques*, 1955)*، طرح مارتينييه فكرة أنّ اللغة نظام وظيفي يخدم غاية التواصل، وأنّ أي تغيير لغوي تحكمه ضرورة تواصلية واقتصادية في الجهد الصوتي. (Martinet, 1955)

ترى اللسانيات الوظيفية أنّ البنية اللغوية ليست غاية في ذاتها، بل وسيلة لتحقيق وظائف محددة: الإخبار، التعبير، والتأثير.

وهي بذلك تقف في موقع وسط بين البنيوية الصورية والتوليدية العقلية.

2. اللسانيات التداولية (La pragmatique linguistique)

ظهر هذا الاتجاه في السبعينيات، متأثراً بأعمال الفيلسوف البريطاني جون أوستن (J. L. Austin) وتلميذه جون سيرل (J. Searle) في نظرية أفعال الكلام. (*Speech Acts Theory*) يرى هذا التيار أنّ اللغة ليست فقط أداة لوصف الواقع، بل فعل اجتماعي يُنجز من خلال فعندما نقول "أعدك"، فنحن لا نصف حدثاً، بل نُنجز وعداً فعلياً. ومن ثم، يصبح معنى الجملة مرتبطاً بالسياق وبنية التواصل أكثر من ارتباطه بالبنية النحوية وحدها. (Austin, 1962)

وقد أسهمت التداولية في إعادة اللغة إلى محيطها الاجتماعي والإنساني بعد أن عزلتها البنيوية داخل البنية المغلقة.

ثالثاً: التحول نحو اللسانيات المعرفية

مع نهاية القرن العشرين، ظهرت موجة جديدة من الأبحاث اللسانية تُعرف بـ اللسانيات المعرفية (Cognitive Linguistics)، قادها باحثون مثل جورج لاكوف (George Lakoff) ورونالد لانغكر (Ronald Langacker). ترى هذه المقاربة أنّ اللغة تعكس طرائق الإنسان في الإدراك، وأنّ المعنى لا يُختزل في

البنية النحوية، بل يتشكّل من خلال التجربة والإدراك والتفاعل مع العالم. ومن هنا تلتقي هذه النظرية مع رؤية بياجيه في علم النفس المعرفي، التي تؤكد أن المعرفة تُبنى تدريجيًا من خلال التفاعل مع المحيط. (لايكوف، 1999)

رابعًا: أثر هذه التحولات في الفكر اللساني الأوروبي المعاصر

أدت هذه التحولات إلى اتساع مفهوم الدرس اللساني ليشمل جوانب لم تكن محسوبة في التصور البنيوي، مثل:

- السياق التداولي،
- الوظيفة التواصلية،
- العلاقة بين اللغة والفكر.

كما غدت اللسانيات علمًا متعدد الاختصاصات (*Interdisciplinary Science*) يتقاطع مع الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم التواصل.

وبات الباحث اللساني مطالبًا بفهم الظاهرة اللغوية في ضوء العقل، والثقافة، والتفاعل الاجتماعي لا في ضوء البنية وحدها.

المبحث الثالث: من البنيوية إلى التوليدية – التحولات اللسانية في القرن العشرين

تمهيد: عرف القرن العشرون تحولات عميقة في الدرس اللساني الأوروبي والعالمي. فبعد مرحلة البنيوية التي ركّزت على البنية الداخلية للغة بوصفها نظامًا مغلقًا من العلاقات، ظهرت اتجاهات جديدة أعادت النظر في هذا التصور السكوني، محاولة إدخال العقل والقدرة الإبداعية للمتكلم ضمن التحليل اللساني.

وقد كان رائد هذا التحول هو **نوم تشومسكي** (Noam Chomsky) الذي أسّس ما يُعرف بـ **اللسانيات التوليدية التحويلية**، لكنها لم تكن الثورة الوحيدة؛ إذ شهد القرن العشرون

أيضاً ظهور تيارات مثل اللسانيات الوظيفية والمدرسة التداولية، التي جعلت اللغة فعلاً اجتماعياً تواصلياً.

أولاً: أزمة البنيوية وميلاد النظرية التوليدية

1. حدود التصور البنيوي

على الرغم من الدقة المنهجية التي ميّزت البنيوية، إلا أنها واجهت انتقادات عدّة. فقد اتُّهمَت بأنها تدرس اللغة في حالتها الثابتة دون أن تفسر قدرة الإنسان على إنتاج جمل جديدة لا متناهية. كما أنها أهملت البعد العقلي والنفسي للغة، مركّزة فقط على العلاقات الشكلية بين العناصر. (الفهري، اللسانيات واللغة العربية: المنهج والمفاهيم، 1994)

2. نعوم تشومسكي والثورة المعرفية في اللسانيات

في سنة 1957، أصدر العالم الأمريكي نعوم تشومسكي كتابه الشهير *البنى التركيبية* (*Syntactic Structures*) الذي أعلن فيه ميلاد النظرية التوليدية التحويلية (*Generative Transformational Grammar*).

انطلق تشومسكي من سؤال جوهري:

“كيف يتمكّن الإنسان من إنتاج عدد لا نهائي من الجمل انطلاقاً من قواعد محدودة؟”

ورأى أن الجواب لا يمكن أن يكون بنيوياً صرفاً، لأن تفسير هذه القدرة لا يتم إلا بالعودة إلى العقل الإنساني.

فاللغة عنده ليست نظامًا اجتماعيًا فقط، بل ملكة ذهنية فطرية تُمكن الإنسان من اكتساب اللغة بشكل طبيعي دون تعليم مباشر. (Chomsky, Syntactic Structures, 1957)

3. المبادئ الأساسية للنظرية التوليدية

طرح تشومسكي تمييزًا بين نوعين من الكفاءة اللغوية:

- الكفاءة: (Compétence) المعرفة الضمنية بالنظام اللغوي.
- الأداء: (Performance) الاستعمال الفعلي للغة في التواصل.

كما ميّز بين البنية العميقة (*Deep Structure*) التي تمثل المعنى المجرد، والبنية السطحية (*Surface Structure*) التي تمثل الجملة المنطوقة.

والتحويلات (*Transformations*) هي العمليات التي تربط بين البنيتين، مثل تحويل الجملة الخبرية إلى استفهامية أو مبنية للمجهول.

وهكذا نقل تشومسكي اللسانيات إلى مستوى جديد يجمع بين التحليل النحوي والنظرية المعرفية، مما جعل اللسانيات فرعًا من فروع علم النفس المعرفي.

ثانيًا: التيارات اللسانية الموازية في أوروبا

1. اللسانيات الوظيفية (La linguistique fonctionnelle)

يمثل هذا الاتجاه امتدادًا لأعمال مدرسة براغ، ويُعدّ أندريه مارتينييه (André Martinet) من أبرز رواده.

في كتابه الاقتصاد في التغير الصوتي (*Économie des changements phonétiques*, 1955)*، طرح مارتينييه فكرة أنّ اللغة نظام وظيفي يخدم غاية التواصل، وأنّ أي تغيير لغوي تحكمه ضرورة تواصلية واقتصادية في الجهد الصوتي.

(Martinet, *Économie des changements phonétiques*, 1955)

ترى اللسانيات الوظيفية أنّ البنية اللغوية ليست غاية في ذاتها، بل وسيلة لتحقيق وظائف محددة: الإخبار، التعبير، والتأثير.

وهي بذلك تقف في موقع وسط بين البنيوية الصورية والتوليدية العقلية.

2. اللسانيات التداولية (La pragmatique linguistique)

ظهر هذا الاتجاه في السبعينيات، متأثراً بأعمال الفيلسوف البريطاني جون أوستن (J. L. Austin) وتلميذه جون سيرل (J. Searle) في نظرية أفعال الكلام (*Speech Acts Theory*). يرى هذا التيار أنّ اللغة ليست فقط أداة لوصف الواقع، بل فعل اجتماعي يُنجز من خلال القول.

فعندما نقول "أعدك"، فنحن لا نصف حدثاً، بل نُنجز وعداً فعلياً. ومن ثم، يصبح معنى الجملة مرتبطاً بالسياق وبنية التواصل أكثر من ارتباطه بالبنية النحوية وحدها. (Austin, *How to Do Things with Words*, 1962)

وقد أسهمت التداولية في إعادة اللغة إلى محيطها الاجتماعي والإنساني بعد أن عزلتها البنيوية داخل البنية المغلقة.

ثالثاً: التحول نحو اللسانيات المعرفية

مع نهاية القرن العشرين، ظهرت موجة جديدة من الأبحاث اللسانية تُعرف بـ اللسانيات المعرفية (Cognitive Linguistics)، قادها باحثون مثل جورج لاكوف George Lakoff ورونالد لانغكر (Ronald Langacker).

ترى هذه المقاربة أن اللغة تعكس طرائق الإنسان في الإدراك، وأن المعنى لا يُختزل في البنية النحوية، بل يتشكّل من خلال التجربة والإدراك والتفاعل مع العالم. ومن هنا تلتقي هذه النظرية مع رؤية بياجيه في علم النفس المعرفي، التي تؤكد أن المعرفة تُبنى تدريجيًا من خلال التفاعل مع المحيط. (لايكوف، الاستعارات التي نحيا بها، 1999)

رابعًا: أثر هذه التحولات في الفكر اللساني الأوروبي المعاصر

أدت هذه التحولات إلى اتساع مفهوم الدرس اللساني ليشمل جوانب لم تكن محسوبة في التصور البنيوي، مثل:

- السياق التداولي،
- الوظيفة التواصلية،
- العلاقة بين اللغة والفكر.

كما غدت اللسانيات علمًا متعدد الاختصاصات (Interdisciplinary Science) يتقاطع مع الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم التواصل.

وبات الباحث اللساني مطالبًا بفهم الظاهرة اللغوية في ضوء العقل، والثقافة، والتفاعل الاجتماعي لا في ضوء البنية وحدها.

خاتمة:

يمكن تلخيص أهم نتائج هذا البحث في النقاط التالية:

1. **الفكر اليوناني والروماني** وضع الأسس الفلسفية الأولى للدرس اللغوي، من خلال التساؤل عن طبيعة اللغة وعلاقتها بالفكر والمعنى، سواء عبر جدلية الطبيعة مقابل الاصطلاح أو من خلال دراسة العلاقة بين اللفظ والمعنى.
2. **العصور الوسطى والنهضة** حافظت على التراث اللغوي ونقلته، مع إدخال المنهج العقلاني والنقدي، وبدأ الاهتمام باللغات القومية، مما مهّد لدراسة مقارنة دقيقة بين اللغات.
3. **المدرسة المقارنة والتاريخية** في القرن التاسع عشر، مثل أعمال فرانز بوب وياكوب غريم، أسست المنهج العلمي لدراسة تطور اللغات وعلاقاتها الوراثية، وهو ما يُعرف باللسانيات التاريخية.
4. **البنائية الأوروبية** بفضل دي سوسير ومدارس براغ وكوبنهاغن، ركّزت على اللغة كنظام من العلاقات، مؤسّسة لعلم اللغة الحديث على أساس تحليل البنية الداخلية.
5. **اللسانيات التوليدية والتداولية والمعرفية** في القرن العشرين أعادت إدخال العقل والقدرة الإبداعية والسياق الاجتماعي ضمن دراسة اللغة، موسعة نطاق البحث اللغوي ليشمل الإنسان كفرد ومجتمع.
6. **التطورات الأخيرة** أظهرت أن اللغة ليست مجرد نظام ثابت، بل ظاهرة ديناميكية متعددة الأبعاد، تجمع بين البنية، العقل، التواصل، والثقافة، مما يجعل دراسة الدرس اللساني مجالاً متعدد الاختصاصات ومتجدداً دائماً.

وبذلك، يظهر أن الدرس اللساني في أوروبا تطور من مجرد تأمل فلسفي إلى علم مستقل ومنهجي، يجمع بين التحليل البنيوي والتاريخي والمعرفي والاجتماعي، مؤكّداً أن اللغة مرآة العقل والمجتمع معاً.

قائمة المراجع

١/- الأجنبية:

- 2- *Économie des changements phonétiques*, 1955, Paris, France, Klincksieck
- 3- *How to Do Things with Words*, 1962, Oxford University Press
- 4- *Syntactic Structures*, 1957, The Hague Mouton
- 5- *The Third Anniversary Discourse* , 1786

ب/- المترجمة والعربية:

- 1- أرسطو. (1948). *العبارة*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- 2- أفلاطون. (1996). *محاورة كراتيلوس*. القاهرة، مصر: مكتبة مدبولي.
- 3- بيير بيلان، *تاريخ اللسانيات في أوروبا*، 1998، باريس، فرنسا، دار لامارتان.
- 4- بيير غيرو، *علم الدلالة*، تر: منذر عياشي، 1990، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال.
- 5- تمام حسان، *اللغة العربية معناها ومبناها*، 1985، القاهرة، مصر، عالم الكتب.
- 6- جورج لايكوف، *الاستعارات التي نحيا بها*، تر: محمد عناني، 1999، الكويت، عالم المعرفة.
- 7- جورج مونان، *مدخل إلى علم اللغة*، 1980 تر: محمد رجب الطيب، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية.
- 8- حماسة عبد اللطيف، *في علم اللغة العام*، 2003، القاهرة، مصر، مكتبة دار النهضة العربية.
- 9- عبد السلام المسدي، (1981). *العربية واللسانيات الحديثة*. الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال.
- 10- عبد السلام المسدي، *اللسانيات وأسسها المعرفية*، 1981، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال.
- 11- عبد القادر الفاسي الفهري، *اللسانيات واللغة العربية: المنهج والمفاهيم*، 1994، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال.
- 12- محمد الخولي، *علم اللغة الحديث: مدخل إلى المدارس اللسانية المعاصرة*، 1992، القاهرة، مصر، دار المعارف.
- 13- نهاد الموسى، *في الفكر اللساني الغربي الحديث*، 2001، عمان، الأردن، دار الفكر.